

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

سورة المعارج مكية

وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾

كان المشركون يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويستخفون بما يوعدهم من العذاب وأنه آتيهم لا محالة ، فكانوا يقولون : وأين هذا العذاب ؟ أما آن وقت مجيئه ؟ بل قال أخبثهم طريقة في تكذيب الوحي ، وهو ”النضر بن الحرث“ ما قصه الله علينا في آية أخرى من كتابه : (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقلق لتكذيبهم هذا ، ويودّ أحيانا لو يُعَجَّلُ إليهم بشيء من العذاب ، فيرعوا أو يؤمنوا ، فافتتح الله تعالى هذه السورة حاكيا ما يقوله النضر أو غيره ممن يسأل سؤاله ، وحاضيا نبيه على الصبر وحسن الانتظار .

و[السؤال] إذا كان بمعنى طلب الشيء واستدعائه يعدى بالباء ، يقال ”سأل بالعذاب أن ينزل به“ ، كما يقال : سأل العذاب . والنضر بن الحرث دعا بالعذاب طالبا له مذ قال (ائتنا بعذاب أليم) ، فيكون المراد [بالسائل] في الآية هو النضر ، ونكره تحقيرا له ، وتهانا به .

أما إذا كان [السؤال] بمعنى الاستخبار عن الشيء اهتماما به ، وتفحصا عن حاله ، فيتعدى بعن تارة ، وبالباء تارة أخرى ، فيقال ”سألت عنه وعن حاله“ ، كما يقال ”سألت به وبجأله“ ومنه قوله تعالى : (فاسأل به خبيرا) ، أى اسأل عن هذا الأمر الذى تهتم له خبيرا به ، ومنه قول عائكة بنت عبد المطلب :

سائل بنا فى قومنا وليكيف من شير سماعه

أى سائل عنا وعمّا كان منا فى تلك الحرب حرب الفجار من النجدة والبسالة .
ويمحتمل أن تكون (سأل) فى الآية بهذا المعنى وهو الاستخبار والتفحص ، ويكون المراد

لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾

[بالسائل] النضر أو غيره ممن كان يسأل سؤاله ، ويكون المعنى : سألك يا محمد سائل عن خبر عذاب طالما حدثهم به ، وحقت لهم أنه واقع بهم ، وقد انتهى السؤال عند قوله (واقع) فأجاب تعالى على سؤال هذا السائل أو على دعائه على نفسه بقوله (للكافرين ليس له دافع من الله) فهو استئناف واقع في جواب سؤال السائل ، ولام (للكافرين) متعلقة بمحذوف ، والتقدير : هو أى ذلك العذاب المسئول عنه ، مهياً ومرصد للكافرين ، فلا يستعجلوا هم ، ولا تضجر أنت يا محمد .

وجملة (ليس له دافع) خبر بعد خبر ، أى هو مخبوء لهم ، وليس له دافع يدفعه عنهم .

وقوله (من الله) متعلق (بدافع) على تضمينه معنى المنع والوقاية : أى إن العذاب مهياً لهم ، وليس له دافع ومانع وواقٍ من الله ، بل ستكون مشيئته تعالى في تعذيبهم نافذة ألبتة .

ويحتمل أن يكون المراد بالسائل الذى سأل هو النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ؛ فقد قلنا إنه أحياناً كان يتقى لو ينزل بهؤلاء المكذبين عذاب يزرعهم عن طريق الدعوة الإسلامية ، فتنتشر وتُلقى بالقبول ، ويكون تنكيده صلى الله عليه وسلم لتعظيمه أو لتعينه ، فأجابه ربه على سؤاله قائلاً : ما تطلبه وتستعجله مرصد ومهياً للكافرين ، ثم ختم الآية بقوله مخاطباً له صلى الله عليه وسلم : (فاصبر صبراً جميلاً) أى صبراً لا قلق معه ولا جزع ، وهكذا يكون الصبر الجميل .

وقد وصف الله نفسه بقوله : (ذو المعارج) ، وهو من العروج أى الصعود والارتقاء . واسم الآلة منه "معرج" و"معراج" وجمعها "معارج" و"معارج" ، فالمعارج في معناها كالمصاعد والمراق والسلام والدرج والدرجات ، فقوله تعالى "ذو المعارج" مرادف لقوله في سورة المؤمن واصفاً نفسه : (رفيع الدرجات) .

و"المعارج" و"الدرجات" إذا نسبت إلى ذاته تعالى كان المراد بها الرفعة والعلو اللاتئنان به تعالى . فذو المعارج وذو الدرجات نعت له سبحانه بعلو الذات وتزهدها عن نقصان ، وليس نعتاً له بعلو الذات وارتفاعها في المكان .

أتبعته فكرتى حتى إذا بلغت غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما رأيت موضع تكييف وتحديد

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿١﴾
فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٢﴾

و[الملائكة] من عالم الغيب الذى يؤمن به ، ولا نكف أنفسنا عنه ما لم يكلفنا إياه الشرع من البحث عنه ، والتفكير فى حقائقه ، فإن هذا غير مستطاع لنا ما دمتنا فى هذه الدار الدنيا .
أما [الروح] فبراد به جبريل نفسه ، وهو أحد هذه الملائكة ، ويكون فى ذكره معهم باسم له خاص زيادة تعظيم له .

ويقول بعضهم : إن [الروح] طبقة من الملائكة كطبقة الخاصة فى البشر بالنسبة إلى غاياتهم ؛ فالروح على هذا جمع لا مفرد ، كما يقال أحيانا "الملك" ويراد به الملائكة .

أما معنى (تخرج الملائكة والروح إليه) أى إلى الله ، فهو عروجها وصعودها إلى حيث يفاض عليها من أنوار قدسه ، وتجليات أمره ونهيه — ما يتعلق بتدبير العالم ، وتدبير الكائنات ، وإعدادها فى الأطوار المختلفة لما خلقت له .

فضمير [إليه] يرجع إلى الله تعالى باعتبار مكان تجليه ، ومصادر أمره ونهيه ، لا باعتبار ذاته ، ومكان وجوده ، فإنه تعالى ليس له مكان ، كما مرت الإشارة إليه آنفا .

وقوله : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) هذا اليوم هو مدة عمر الدنيا وليس التحديد مرادا كما يأتى بيانه . قال أبو مسلم الأصفهاني ولا يلزم منه أن يصير وقت القيامة معلوما ؛ لأننا لا ندرى كم مضى وكم بقى . والمراد باليوم فى هذه الآية مطلق الوقت ، وهو استعمال كثير الشيوخ فى كلام العرب ، قال فى المصباح : "والعرب قد تطلق اليوم وتريد الوقت والحين نهرا كان أو ليلا ، فتقول ذخرتك لهذا اليوم أى لهذا الوقت الذى افترقت فيه إليك" اه ؛ فالملائكة تخرج فى مدة الدنيا منذ أول نشأتها إلى حين اندثارها ، ومعنى أنها تخرج فى ذلك اليوم أنها تتردد بين الرب وبين هذه الأكوان بما يريد منها ، ويقضيه فيها .

ولا نقدر أن نفهم من هذا إلا أن الله الذى خلق هذا الكون ، أراد أن يدبره ويبلغه كماله بوسائل خلقها وسماها ملائكة (١) ، كما شاء لنا نحن فى حياتنا الدنيوية أن نتخذ وسائل فى قضاء

(١) كما سماها (المدبرات) فى سورة النازعات ، مذ قال تعالى : (فالمدبرات أمرا) .

أعمالنا ، وتوفير مصالحنا . أما أنه لماذا اتخذ سبحانه هذه الوسائط ؟ ولماذا لا يفعل ويدبر مباشرة ؟ فهذا ذهول من السائل عن نفسه ، واستغراق في طينة حسه ، كدعموص^(١) في حماة يتناول إلى درس أرقى مدنيات العالم ، وإلى فقه أسرارها ، ودقائق اختراعاتها .

أما وجه ارتباط خبر عروج الملائكة في الدنيا بما قبله من سؤال السائل عن العذاب وأنه مهيا للكافرين — فيفهم من إعمال المقارنة بين هذه الآية وبين آيتين أخريين وردتا بهذا المعنى ، وهما قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) ، وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

فالآيات الثلاث بعضها يفسر بعضا ، وهي متواردة على إفادة معنى أو معنيين تقريبا ، ومحصل ذلك أن الله تعالى أجاب المكذبين بأن ذلك العذاب الذي يستعجلونه واقع بهم لاحاله ، وأنه لا أحد يقدر على دفعه عنهم ، ومنع ما يريدته تعالى بهم ، ثم نبههم بقوله (تعرج الملائكة الخ) إلى أن ذلك العذاب إنما يروونه بعيدا لطول مدة الدنيا ، فهي في نظرهم ، وباعتبار مقاييس أزمانهم طويلة جدا كألف سنة أو خمسين ألف سنة ، مع أنها ليست عنده تعالى وبالنسبة إلى الأحقاب التي تربط الأبد بالأزل سوى يوم ، أى زمن قصير تعرج فيه الملائكة مترددة بين الخالق وبين الخلاق ، تدبر أمرهم ، وتمدهم من العناية الإلهية بما فيه صلاحهم ، فما لهؤلاء المكذبين يستعجلون العذاب ؟ ويستبطلون الحساب ؟ وهو منهم على قاب ؟ ولما أراد أن يصف سنى عمر الدنيا بالكثرة عبر عنها في آية بألف سنة ، وفي أخرى بخمسين ألف سنة ، ولم يرد سبحانه التحديد والتعيين ، وإنما أراد المبالغة في وصف المدة بالطول بالنسبة إلى البشر . وقد جرى في ذلك على ما اعتادوه في أساليب كلامهم في مثل هذا المقام ؛ فهم إذا أرادوا تكثير مرات فعل من الأفعال قالوا : جئت أو فعلت سبعين مرة ، أما إذا أرادوا الإخبار عن زمن بأنه طويل جدا ، مرة يقولون : لو عاش فلان ألف سنة ، ومرة يقولون : لو عاش خمسين ألف سنة ، وفي كلا التعبيرين لا يريدون

(١) الدعوص دوية أو دودة سوداء تكون في المياه الراكة وتندس في حلها .

إلا المبالغة بطول المدة . وقد ذكر القرآن في حادثة واحدة وهي وقعة بدر — أن الله أمد المؤمنين بألف^(١) من الملائكة بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف ، ولا مفهوم فيه للعدد كما قلنا . وذكر بعض علماء الحديث بمناسبة قوله صلى الله عليه وسلم ” إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ” — أن العرب يذكرون السبعة في الآحاد ، والسبعين في العشرات ، والسبعائة في المئات ، ولا يريدون بها تعيين العدد ، وإنما يريدون إفادة الكثرة . وحمل بعضهم (اليوم) في آيتنا التي نفسرها — على يوم القيامة ، وقال إن المراد بالآية تهويل أمر ذلك اليوم ، وتعظيم شأنه في نفوس المشركين المكذبين الذين يستعجلون العذاب ، فهو تعالى يقول : إن ذلك العذاب يقع في يوم يطول عليكم أيها المكذبون إلى حد أن تحسبوه خمسين ألف سنة ، وما هو بالنسبة إلى اللانهاية إلا كيوم واحد .

وسواء أردنا باليوم يوم الدنيا ، أو يوم الآخرة ، فليس المراد بالخمسين ألفا تعيين عدد السنين ، وإنما المراد وصف ذلك اليوم بالطول .

وكان السلف الصالح يكرهون التقصي في البحث ، والإلحاف في السؤال عن مثل هذا ، وكيف يكون اليوم تارة ألف سنة ؟ وتارة خمسين ألف سنة ؟ فقد سأل رجل ابن عباس رضي الله عنه عن معنى قوله تعالى : (في يوم كان مقداره ألف سنة) ، فلم يجبه ابن عباس عن سؤاله ، وإنما وجه إليه سؤالاً بمعنى سؤاله قائلاً : ” ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ ” فقال له الرجل : ” إنما سألتك لتخبرني ” ، فأجابه ابن عباس : ” هي أيام سماها الله ، وهو أعلم بها كيف تكون ، وأكره أن أقول فيها ما لا علم لي به ” .

هذا ، وفي الآية وجوه أخرى تتعلق بمعناها وإعرابها اقتصرنا منها على ما رأيناه أجمي بالقبول ، وأحظى لدى العقول .

(١) ففي الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف) وفي آل عمران (أن يكفكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) وفيها أيضا (يمدكم ربكم بخمسة آلاف) .

لأنهم يرونه بعيداً ⑥ ونزله قريباً ⑦ يوم تكون السماء كالمهل ⑧
وتكون الجبال كالعهن ⑨ ولا يسأل حميم حميماً ⑩

قوله (لأنهم يرونه انخ) أى إن المشركين المستبطين يوم الدين يرون العذاب الذى أوعدوا به فيه بعيداً ، لأنهم كانوا لا يصدقون به . ويقول سبحانه إنه هو جلت عظمتة يرى ذلك العذاب الواقع فى يوم القيامة الذى تكون فيه السماء كالمهل — قريباً ، أى واقعا محقق الحصول . وغير عنه بالقرب مشاكلة ومقابلة لقوله (بعيداً) .

وقوله تعالى (ونراه قريباً يوم تكون انخ) انتقال وخلوص من الرد على المكذبين بيوم العذاب إلى وصف ذلك اليوم الذى فيه (تكون السماء كالمهل) .

[والمهل] مائع الزيت ، ومائع الفلز المذاب : كالنحاس والحديد والفضة ، مع ملاحظة أن يكون للسائعين المذكورين اللون الخاص الذى يعهده فيهما كل من رأى معدنا يصهر ويذاب ، أو رأى دُرْدِي الزيت وعكره يصب ويكال . هذا اللون الأكد الضارب إلى الحمرة أو الزرقة أو الخضرة هو لون السماء يوم تقوم القيامة ويأذن الله بخراب هذا العالم .

(وتكون الجبال كالعهن) : [العهن] الصوف المصبوغ ألوانا من أصفر وأحمر وأخضر وقد وصف هذا الصوف فى سورة القارعة بأنه ” منقوش “ . والجبال إذا بُسَّت يوم القيامة ، وتفتتت أجزاؤها — وهى بالطبع مركبة من أتربة ومعادن مختلفة اللون — كانت ذراتها المنبثة فى الفضاء منقوشة غير متلبدة ، وذات ألوان مختلفة : كألوان الصوف المصبوغ تهاويل ، لا ذات لون واحد .

هذه هى حال السماء والأرض فى ذلك اليوم . أما حال الخلائق فهى كما قال تعالى : (ولا يسأل حميم حميماً) . حميم المرء قريبه وصديقه الذى يهتم بأمره ، فمن شدة ما ينزل بهم جميعاً من الهول والفرع يتناكرون ويتدافعون يمينا وشمالا ، مشغلا كل منهم عن حميمه بنفسه ، وتلمس طريق الخلاص لها ، ويحصرهم فى ذلك بحيث لا يعود يسأل حميمه : ما شأنك ؟ وكيف حالك ؟ وهل تطلب منى معونة ؟ وهذا كما قال تعالى فى سورة عبس : (يوم يفتر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ يَفْتَدِي مَنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ ﴿١١﴾ وَصَلَحَ حَبِيبَتَهُ
وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْنَاهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾

يقول قائل: إن الحميم قد لا يكون أبصر حميمه في ذلك الوقت ليسأله ، فقال تعالى ﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ وهو مضارع مجهول من التبصير ، وضميره المرفوع — وهو نائب الفاعل — يرجع إلى (حميم) المرفوع ، وضميره المنصوب يرجع إلى (حميا) المنصوب . وإنما أتى بالضميرين بلفظ الجمع لما في المرجعين من العموم وإن كانا مفردين .

يقول : إن الأقارب والأصدقاء لا يسأل بعضهم بعضا عن حاله في ذلك اليوم مع كونهم قد جعل الله بعضهم يبصر بعضا ، ويعرفه أنه هو ، ولم تكن ثمة حواجز تحول دون رؤية أحدهم والآخر ، وإنما يمنعهم عن المسألة تشاغل كل بخويصة نفسه .

قوله ﴿يَوْمَ الْمَجْرَمِ الْخ﴾ هذا ترقُّ في وصف هول ذلك اليوم ، يقول : لا يقتصر الأمر في ذلك اليوم على وقوع التنكر والتدابير بين الأحياء والأهل والأصدقاء ، بل الأمر أفظع من ذلك ، إذ (يَوْمَ الْمَجْرَمِ) — وهو مرتكب جريمة الجحود والتكذيب — ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ الْخ﴾ ، أى يتنقّى لوتقبل منه فدية ، فيقدم فداءً عن نفسه أقرب الناس إليه ، وألصقهم به ، وأعزهم عليه ، من ابن وزوج وأخ وأبناء عشيرة كان يأوى إليها ، ويتشكل في نوائبه عليها ، بل يتنقّى لوتقبل منه فدية فيفتدى بـ ﴿مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من البشر وغير البشر ، ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ذلك الفداء ، وينقذه من الكرب ، وفادح الخطب . و[صاحبة] الرجل امرأته ، وقد تقول المرأة عن زوجها إنه صاحبها ، لكنه قليل ، قالت ليل الأخيلى :

لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل

و[فصيلة] الرجل عشيرته ورهطه الأدنون ، الذين انفصل عنهم بالولاد ، وبقى يأوى إليهم بالنسب والنصرة في الأيام الشداد .

ولما كان قبول الفداء منه يومئذ بعيد الحصول ، ونجاته من العذاب بهذا الطريق غير مأمول — عطف فعل ﴿يُنْجِيهِ﴾ على ﴿يَفْتَدِي﴾ (بثم) التى تستعمل في التراخي والبعد الزمانى أو الاعتبارى كما هنا ، كأنه يقول: يود أن يفدى نفسه بهؤلاء المذكورين وهيئات أن ينجيه ذلك .

كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾

((كلا)) كلمة زجر وتعنيف ، يصدع بها المخاطب صرفاً له عن اعتقادٍ أو رأيٍ أو عملٍ غلا في التمسك به ، والتعصب له ، فيكون معناها ليس الأمر كما زعمت أو عملت يا هذا ، وإنما هو كيت وكيت ، والمكذبون بيوم الدين المستبعدون لوقوع العذاب فيه غلوا في عنادهم وتكذيبهم بعد أن وضع الأمر لهم ، وقامت الحجّة عليهم ، حتى كأنهم من فرط العناد ، وقيام الحجّة ، يعلنون أنفسهم بالأمانى ، ويتمسكون بأوهى الأسباب ، من مثل استنقاذ أنفسهم بفدية ما ، فكذبهم الوحى في ظنهم هذا ، ثم زجرهم عنه ، وردعهم عن التماضى فيه قائلاً : ((كلا إنها لظى الخ)) ، أى دُعوا أيها المجرمون المكذبون هذه التعلّلات ، والأمانى الكاذبات ، فإنّ الأمر ليس كما تزعمون من أنه تعالى لا يخلق داراً يعذب فيها الفجار ، أو أنه إذا خلقها فقد يتلمسون فيها طريقاً للتخلص بفداء ونحوه (إنها لظى) ، أى تلك الدار ، أو إنّ تلك القصة الهائلة التى تمارون فيها ، هى لظى كما أخبركم بها نبيكم صلى الله عليه وسلم ، لا ريب فيها ، ولا منجى منها .

و[الظى] اسم للنار ذات اللهب ، و[الشوى] كل ما لم يكن مقتلاً من الأعضاء : كاليدن والرجلين والأطراف ؛ يقال : "رمى فلان فلاناً فأشواه" ، أى أصاب أطرافه ، ولم يصب منه مقتلاً ، ويقال فى ضده "رماه فأصماه" إذا أصاب مقتلاً له فأرداه ، والمعنى أن تلك النار من فرط تلظيها تنزع أطراف المعبّد وجوارحه نزعا شديداً مبالغاً فيه ، أو نزعا متكرراً يحصل مرة بعد مرة ، وكأنه خص الأطراف بالذكور دون الأعضاء الرئيسية التى إذا نزع مات صاحبها — للإشارة إلى أنّ تعذيبهم بتلك النار المتلظية لا يسلبهم حياتهم ، فهم فى النار دائماً أحياء يعذبون ويكون حفظ الحياة ودوامها إذ ذاك بمحض قدرة الله تعالى .

وقال بعضهم إنّ [الشوى] هنا جمع شواة وهى جلدة الرأس ، وتسمى "فروة الرأس" أيضاً وإنّ النار يوم القيامة تنزع من المكذبين الجاحدين جلادات رؤوسهم المرة بعد المرة ، كلما نُزعت أُعيدت زيادة فى التنكيل والتعذيب .

تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾

وقوله (تدعو من أدبر وتولى) أى تنادى وتهتف بالذى أدبر وأعرض عن الإيمان . وقال (تدعو) لأن تهيو جهنم ، وتبرجها للعرضين عن الإيمان ، وتفتح أبوابها لدخولهم — كأنه فى المعنى هتاف بهم ، ودعاء لهم ، وهو ما يسمونه "لسان الحال" كما أن الدعاء بالقول "لسان المقال" . وهذا الضرب من التعبير كثير الشبوع فى كلام العرب وأشعارهم ، لا سيما إذا أرادوا الحكاية عن شئ لا يعقل ووصف أحواله ، ومنه قوله :

شكا إلى جملى طول الشرى يا جملى ليس إلى المشتكى

صبرا جميلا فكلانا مبتلى

والجمل لا يمكن أن يشكو بلسان مقاله ، وإنما يشكو بلسان حاله ، فإن آثار الأين والكلال والحفاء البادية عليه ، كأنها ألسنة تنطق بالشكوى إلى صاحبه .

وقال أبو النجم الرجاز المشهور يصف روضة : "تقول للرائد أعشبت أنزل" .

أى أنها لاستجاعتها ما يلزم للقوم المسافرين من مرعى وماء وظل إذا وصل إليها رائدهم يتبختل لهم مكانا للنزول استوقفته تلك الروضة بحيث لا يمكنه تجاوزها دون النزول فيها بقومه ، فهى كأنها تقول له : "أعشبت" أى أصبت عشباً ، "فأنزل" على الرحب والسعة . ومثله قول الرجاز الآخر :

أمتلاً الحوض وقال قطنى مهلا رويدا قد ملأت بطنى

فهذا ما يسمونه لسان الحال . وله شواهد كثيرة جدا فى القرآن والحديث ، وقد غفل عنه الكثيرون فحملوه على الحقيقة ، وجعلوه من الخطاب بلسان المقال ، ولا حجة لهم إلا أن الله تعالى قادر على كل شئ ، ومن ذا الذى ينكر قدرته تعالى ، ولكننا نرى أن حمل هذه الآية ونظائرها على التمثيل كما ذكرنا عن أهل اللسان فى الحكاية عما لا يعقل — أمثل بل أبلغ من حملها على الحقيقة ولا داعى عقلى أو شرعى للحمل عليها . على أن مفسرا لغويا ^(١) جعل (تدعو) هنا على حد قوطم "دعا الله فلانا بما يكره" أى أنزل به ما يكره ، فمعنى دعوة جهنم إياهم أنها تفعل بهم الأفاعيل .

قلنا إن جهنم فى ذلك اليوم تهتف بأبنائها أن يسرعوا إليها ، ومن هم أبنائها ؟ (من أدبر وتولى) أى أعرض عن الإيمان بالله ، وقبول ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام من الهدى ودين

الحق ، وكذلك هي تدعو إليها أيضا من تكالب على الدنيا ، (و جمع) من حطامها (فأوعى) ، أى خبأه وكثره فى الخزائن والصناديق والأوعية ، يقال ”أوعى الشيء“ إذا حفظه ، وأوعى الزاد والمتاع إذا جعله فى الوعاء . وأوعى أيضا جمع وشيخ ، ومنه الحديث ”لا تُوعى فى وعى الله عليك“^(١) .

وفى الآية وعيد شديد لمن ييغل بالمال ، ويحرص على جمعه ، فلا ينفقه فى سبيل الخير ، ولا يخرج حق الله فيه . وقد جعل الكتاب كائنا المال ، الشحيح به ، الذى يمنعه مستحقه — بمنزلة المعرض عن الحق ، المكذب للدعوة ، الجاحد للرسالة ، كما جعلهما فى قرن واحد أيضا مذكرا تعالى : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين) . وقد مر الكلام على هذه الآية مستوفى فى سورة الحاقة .

وإن الباحث المفكر ليقف موقف الحيرة فى معرفة أية الخصلتين أشد محققاً للائيم ، وإجهازاً على حياتها ؟ الكفر بالله ؟ أم الشح ؟ أعنى ترك بذل المال فيما يجب فيه البذل . ويظهر من آيات الكتاب المتكررة — ولا سيما فى الآيات الآتية قريبا — أن الخصلتين سواء فى ذلك . أعادنا الله من المهالك .

وما وصفه الله من هول الساعة ، ولون السماء ، وحالة الجبال ، وتقاطع الأيحاء المحشورين فى عرصات القيامة ، ثم ما يكون للكاذبين فى جهنم من العذاب والنكال ، بالسلاسل والأغلال ، وما يكون للمؤمنين فى الجنة من الجزاء والثواب ، بالطعام والشراب ، وصنوف اللبوس والثياب ، كل ذلك نعتده من دون زيادة أو نقص ، ونكل أمر حقيقته وكنهه إلى الله تعالى ، كما كان يفعل سلفنا الصالح فى فهم ذلك ، وفى تربية أولادهم عليه .

روى الإمام أحمد فى مسنده أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه سمع ابناً له يدعو ويقول : ”اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحو ذلك ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها“ فقال له أبوه : ”لقد سألت الله خيراً كثيراً يا بنى ، وتعوذت به من شر كثير ، لكنك تعدت الحد الذى نهى الله عن تعديه فى قوله تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية . إنه لا يحب المعتدين) أى المتجاوزين فى الدعاء . ثم علمه الأدب فى ذلك فقال له : حسبك أن تقول : ”اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل . وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل“ .

(١) أى لا تجمى وتشحى بالنفقة فيجاز بك الله بتضييق رزقك . المصحح .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنه يقول : ” اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها “، فقال له : ” يا بني ، سل الله الجنة ، وتعوذ به من النار “، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء والاعتداء في الطهور المبالغة في الوضوء والغسل والنظافة بما يؤدي إلى الوسوسة .

فإذا كان السلف رضوان الله عليهم لم يرضوا أن يعين الداعي ويخصص ويغلو في دعائه — وليس الدعاء سوى طلب وتمنٍّ من الله — فكيف يرضون أن يضع التزوة في أوصاف الجنة والنار وأطوارهما وأحوال المتعمين والمعذنين فيها — بزعم الترغيب والترهيب — ما لا أصل له في الدين ، بل ربما مهد الطريق أمام تشكيك المشككين ، وزعزعة عقائد المؤمنين .

ولما ختم الآيات السابقة بوصف لظى التي يستبطنها المكذبون ، وذكر أنها تدعو إليها من كان منهم معرضا عن الحق ، مكجا على جمع المال وكثره — تطرق من ذلك إلى ذكر خلقٍ فُطر البشر عليه ، وكان سببا في معظم الشقاء الذي يصيبهم ، ثم استثنى منهم أولئك الذين قدروا على تطهير نفوسهم من ذلك الخلق بممارسة الفضائل الدينية .

أما الخلق الذي فُطر عليه الإنسان فهو ما عبر عنه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ وأراد بالإنسان كل أفراد لا واحدا منه بدليل استثناء (المصلين) منه ، والاستثناء معيار العموم .
أما [الهلوع] فقد فسره الكتاب نفسه بقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ ، والمعنى أن الله خلق الإنسان وغرس في نفسه منذ أول نشأته هذا الخلق الذي هو [الهلع] ؛ فهو ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ ونزل به المكروه من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ كان ﴿ جزوعا ﴾ ، فيستولى عليه اليأس والقنوط ، ويحسب أن ما نزل به غير مقلع عنه ؛ فالفقر لا يعقبه غنى ، والمرض لا تخلفه صحة ؛ والخوف لا ينسخه أمن . وكثيرا ما قاده يأسه هذا ، إلى ارتكاب معصية أو منكر وقتل نفسه أحيانا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ ﴾ وتيسرت له أسباب الرغد ، وغضارة العيش ، فأصبح غنيا موسعا عليه في الرزق ، صحيح الجسم معافي ، موفور الجانب ، نافذ الكلمة ، ذا جاه ومنصب — كان إذ ذاك ﴿ منوعا ﴾ يمنع الناس رفقده ومعونته والانتفاع بجاهه ؛ فهو من غلبة هذا الخلق عليه يحسب أن ما أوتيته من الخير والرزق والنعمة لم يؤته إلا لكونه مستحقا له بذاته لا بفضل الله ، فيطغى على الناس ، ويكفر النعمة ، فلا يشكر الله عليها بوضعها في مواضعها ، بل قد يستخف بها أحيانا فيحسب أنه مستحق

إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ
حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾

لأكثر منها . وربما تدرج من هنا إلى إيذاء خطائهم والبغى عليهم ، وغمط حقوقهم ، وهذا هو
البطر ، وصاحبه هو [المنوع] الذى حكى الله عنه فى هذه الآية .

خلق الله الإنسان منذ أول نشأته مفطورا على [الهلل] ، لكنه تعالى لطف به ، فخلق فى نفسه
فى جانب هذا الهلل مواهب سامية : كالعقل ، وغريزة الدين ، وكآيات الوحي التى كان يتلقاها
الأنبياء فيما يلحون بها ضعف الإنسان ويلطفون من سورة هلله ، ومن ذلك الصلاة التى هى عماد
الدين ، وأكبر مظهر من مظاهر عاطفته . وهذا معنى قوله ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ ، استثناء من أفراد
الإنسان الملوثين بالهلل ؛ فالمصلون بما واطبوا على صلواتهم ، وتعرضوا لتفحات ربهم وهم
يناجونه فيها — استفادوا فرط ثقة به ، ورضى بقضائه ، وعرفان أن كل خير وشئ بتقديره ،
فلا يجزعون إذا مسهم الشر ، ولا يمتنعون إذا مسهم الخير . ومثلهم فى ذلك المذكور ﴿الذين
فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم﴾ .

و[السائل] الفقير الذى يتكفف فيعطى ، [والمحروم] الذى يتعفف فيحرم ، أو هو الذى
أصيب بأفة سماوية اجتاحت ماله ، فوجم لذلك وافتقر ، وأنف أن يسأل الناس ، أو هو الذى
كلما طلب الدنيا أدبرت عنه ، ويسمى الحدود "بالحاء المهملة" والمحارف أيضا . وضده المجدود
"بالباء" وهو المبارك الميمون النقية . والاسم من المحارف "الحُرْفَةُ" بضم الحاء . ومنه قول
الشاعر :

ما فيه لو ولايت تنقصه وإنما أدركته حُرْفَةُ الأدب

أى حرمان الأدب وشؤمه .

فالموسرون الذين يجعلون فى أموالهم قدرا معيناً من المال ، ويرون ذلك حقا واجب الأداء
للفقراء ، سواء أطلب الفقراء منهم ذلك أم تعففوا فلم يطلبوا — هؤلاء المذكورون جديرون —
بما مارسوا من الصلاة ، وما أنفقوا من الزكاة — ألا يعتدوا من أفراد الإنسان الهلوع الذى
وصفه الوحي ، وشهر به ، ومقت فعله .

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
 إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾
 إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾

قوله ((وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ الخ)) يعنى بهم الذين آمنوا بالغيب وبيوم الحساب ، وصدقوا بجميع ما أتى به الوحي على لسان الرسل من أصر الثواب والعقاب ، فأصبحوا — وقد مازج هذا التصديق قلوبهم — خائفين أن يحاسبوا ، مشفقين أن يُعَذَّبوا ، ولا سيما أنهم يعلمون أن العذاب غير مأمون ، والخلاص غير مضمون ، فيزيدهم ذلك إقبالا على الله وعلى ممارسة الأعمال الصالحة ، كما أن نعتهم بوعده الله بالثواب تتلج صدورهم ، وتشحذ عزائمهم ، وبذلك يبقون مترشحين بين الرجاء والخوف ، لا غلبة رجاء تحملهم على الكسل ، وتسويف العمل ، ولا شدة يأس تسلبهم إلى الخطل ووسوسة الخبل .

إن مثل هؤلاء المصدقين المشفقين قلما تزدهيهم الدنيا ، أو يبطرهم نعيمها ، أو يجزعون لما فاتهم من حطامها ، فسواء عليهم أضحوا في الدنيا أم سقموا ، خسروا في حظوظها أم غنموا ؛ إذ أن لديهم من الفكر في جلال ربهم ، وذكر معادهم — ما يشغلهم عن الجزع إذا مسهم الشر ويربأ بهم عن المنع إذا مسهم الخير ؛ فشر الدنيا وخيرها إلى فناء وانصرام ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

ثم ذكر الفريق الخامس من الموقنين الذين قدروا أن يحفظوا نفوسهم من وصمة [الهلع] المنقوت ، ويحفظوا موازنتها ، ويضبطوا ميولها ؛ فلا تستسلم للجزع والوسوسة ؛ ولا تسترسل في المنع والغطرسة ، وأولئك هم الأعفَاء الذين قال الكتاب عنهم إنهم (لفروجهم حافظون) ^(١) ،

(١) جعل المؤلف "الحافظين لفروجهم" فريقا خامسا ، وهذا يدل على أنه بعد المحافظين على الصلاة فريقا ، والمؤدبين للزكاة فريقا آخر ، وهكذا ، وسيصرح بهذا قريبا . ولعل الذى ساقه إليه تكرر اسم الموصول "الذين" ، وليس بسديد ، بل المراد بالمصلين المؤمنون ، كنى عنهم بالصلاة التى هى عماد الدين ، ثم ذكر أوصافهم المختلفة التى لا يعنى بعضها عن بعض في تحقيق الإيمان ، بل تتأزر كلها على إصلاح المؤمن في نواحيه المختلفة وكل وصف منها له أثر كبير في مقاومة الهلع . وإنما تكرر الموصول لبيان مزيد اختصاص المؤمنين بما تضمنته الصلوات من صفات ، كما تقول حينما تريد أن تصف إنسانا بعدة صفات ، وتدل على مزيد ارتباطه بها — : مجد هو الذى يقوم بشعائريته ، والذى يكرم ضيوفه ، والذى يخلص في خدمة وطنه ، وهكذا ، كأنك تريد أن هذه الصفات لا تكون إلا له . اهـ : المصحح .

فَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢١﴾

فلا يرتكبون المحارم ، ولا يتلوثون بالمآثم ، ولا يعرفون غير أزواجهم ، أو مملوكات إيمانهم ، يعنى الرقيقات . فالذين يقتصرون على ما أحله الله لهم موأثاةً لنا موسى الفطرة الإلهية ، وتكثيراً لسواد الأمة بوفرة النسل والذرية — يكونون ((غير مملومين)) ، بل غير مبخوسين حقهم من الأجر فى هذه النية . أما الذين يبتغون من الشهوات ، والفواحش والمنكرات — ((وراء ذلك)) ، أى وراء ما أحله الله ((فأولئك هم العادون)) ، أى الذين تعدوا حدود الله ، وخالفوا الناموس الأمر بالاعتدال فى مطامح النفس ، وتكاليف الحياة .

والرق كان فاشياً قبل البعثة المحمدية فى العرب واليونان والرومان على أشنع صورة وأنكرها . ثم جاء الإسلام فضيق دائرته ، وحصره فى أسرى الحرب ، وأمر أتباعه أن يعتبروا الرقيق كواحد من أسرهم ، فقال : ”إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون“ ، فكان الرقيق فى الإسلام رقيقاً ظاهراً ، أخاً باطناً . والاسترقاق على هذه الصورة وسيلة من وسائل نشر الإسلام ، وتعميم تعاليمه ، وتكثير سواد أهله ، فهو يشبه ما يسمونه اليوم بلسان السياسة : التجنس بالجنسية والالتحاق بالتابعة .

ومع هذا فإن الدين الإسلامى كان يعتبر الرق والحرب الموصلة إليه كليهما ضرورة ينبغى تجنبها ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، ومن ثم كان ينهى عن تمنى لقاء العدو أى عن تمنى الحرب ، وذلك بأن تفض مشاكل الخلاف بين الأمم من دونها ، كما يحض على عتق الرقيق وهو أسير الحرب ويرغب فى إعطائه حريته ، ويتوسل إلى عتق العبد بمختلف الوسائل ، ومتعدد الوسائط كما إذا حلف سيده وحنث ، فإن من كفارات يمينه أن يعتق رقبته .

أما اليوم وقد أخذت أصول الحرب بين أمم العالم شكلاً جديداً ، وكان من تلك الأصول إبطال أمر الاسترقاق — فلم يكن الدين الإسلامى ليأبى ذلك لموافقته أصل الأصول عنده ، أعنى الرحمة والرفق بالإنسان ، والمبادرة إلى عتق الرقيق ، على أن الاسترقاق اليوم أصبح من المتعذر إيقاعه حسب الشروط التى اشتراطها الإسلام ، والأحوال التى قررها الشارع ، فكان على البشر إهماله وترك العمل بشريعته .

وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿٣٥﴾

تنقسم أصول الشرائع التي يكلفها المرء في دنياه ثلاثة أقسام كبرى :

(القسم الأول) ما كان بين العبد وربه من عقائد وعبادات محضة .

(القسم الثانى) ما كان بين العبد وإخوانه مما التزموه بينهم من العهود والمعاملات المحضة .

(القسم الثالث) ما كان متوسطا بين القسمين المذكورين وله شبه بهما كليهما .

وقد انطوى تحت القسم الأول أربع طوائف من الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خُلُق [الهَلَع] المذموم (١) وهم :

(١) (الَّذِينَ يَصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) أى يوم الحساب .

لكن هؤلاء قد لا يحملهم تصديقهم على الإشفاق والخوف من العذاب ، فيستسلمون في المعاصى والشرور ، فنخص المشفقين من المصدقين وجعلهم فريقا ثانيا فقال :

(٢) (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) .

ثم ذكر أن أعظم مظهر من مظاهر الإشفاق ، وأكبر معوان على جعل ذلك الإشفاق جالبا لرضا الله ، وأقيا من سخطه وعذابه — هو الصلاة والالتجاء إلى الله ، فنخص المصلين من المشفقين ، وجعلهم فريقا ثالثا فقال :

(٣) (إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) ومعنى دائمون يأتون بها في أوقاتها ؛ فلا تفوتهم منها فائتة .

لكن هؤلاء قد لا يحسنون أداء الصلاة ؛ فلا تقع بحيث تؤثر في قلوبهم الأثر النافع ، ولا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فنخص من المصلين المواظبين على الصلاة في أوقاتها ، المحافظين على سننها وآدابها وشرائطها ، وجعلهم قسما رابعا ، لكنه ذكره في آخر الأقسام الثمانية اهتماما بالصلاة ، وإعادة تذكير بها ؛ لكونها عُرْضة للتفريط فيها والتكاسل عنها فقال :

(٤) (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) أى يلتزمون شرائطها وآدابها ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات ساذجة ، لا حاجة لله فيها ، ولا فائدة للعبد منها .

(١) وهكذا يسترسل المؤلف في عدد الصفات طوائف من الناس ، والصواب — بناء على ما قدمنا — أن يقول هنا : وقد انطوى تحت هذا القسم أربع من صفات الإيمان المطهرة للنفوس ... الخ . المصحح .

أما القسم الثاني وهو المعاملات فذكر الوحي الذين يراعونها ، ويؤدّون ما التزموه منها من الموفقين ، وهم فريقان فقال :

(٥) ((والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون)) فد [الأمانات] هي الحقوق المتبادلة بين الناس . و [العهد] يريد به جملة العقود التي تتوثق بينهم ، وتكون أساسا للحقوق والأمانات ، وينطوي تحت الأمانات والعقود كل أنواع المعاملات ومن جملتها [الشهادة] لدى الحاكم ، بل إن الشهادة أكبر ضمانا لسلامة تلك الأمانات وحفظها ، فإذا وقع التساهل والتفريط فيها بكتبتها أو نسيانها ضاعت الحقوق ، وعقمت العقود ، وخزيت الأمانات ^(١) ، وفسدت المعاملات . ومن ثم خصّ الكتاب الشهادة من بين الأمانات والعهود بالذكر ، وجعلها قسما برأسها فقال :

(٦) ((والذين هم بشهاداتهم قائمون)) أي يؤدّون لها على وجهها بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم .

أما القسم الثالث من الأعمال الشرعية المتوسطة بين العبادات والمعاملات فهي الزكاة والصدقة وكل صلة مالية أخذ المرء على عاتقه مواساة لإخوانه الفقراء بها ، سواء أكانت مما أوجبه الله عليه ، أم مما التزمه هو التزاما . وهذا الفريق ذكره الكتاب بقوله :

(٧) ((والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم)) وقد مر بيانه .

ومن جملة هذا القسم أمر النكاح والاقتضار فيه على ما حله الشرع ، ففي هذا الاقتضار والتعقّف طاعة لله ، وصيانة للأعراض ، وحفظ للأنسب ، وبهذا الاعتبار أشبهت عقود النكاح عهود الشرف والكرامة المتبادلة بين أفراد الأمة ، فإن في انتهاك أعراضها إضاعة لحقوقها وامتنان لكرامتها ، وقد أشار الكتاب إلى هؤلاء المتعقّفين الموفقين بقوله :

(٨) ((والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم الخ)) ومر تفسير ذلك أيضا في محله .

وبعد أن أتى الكتاب على ذكر هذه الأقسام الثلاثة مما فيه دواء لداء الخلع الممقوت ، وذكر ما انطوى تحته من الأقسام قال :

((أولئك في جنات مكرمون)) (أولئك) إشارة إلى ما ذكر من الطوائف الثمانية ^(٢) ، فهو يقول إن لهم من الجزاء يوم القيامة على أعمالهم وحسن مساعيهم رضاء الله ، والحلول في دار الكرامة .

(١) من نذى الرجل كرضى نذيا إذا هان أو هلك .

(٢) الإشارة — بناء على ما قدمنا — إلى المؤمنين الذين اجتمعت فيهم تلك الصفات . المصحح .

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكْ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ ﴿٣٧﴾

[الذين كفروا] هم الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم، وأنكروا البعث والحساب والعذاب، وكان أحدهم سأل عن العذاب متى يقع، تهكما به، وتكديبا له. فبعد أن رد الله عليهم تكذيبهم في فاتحة هذه السورة، ووصف ما سيلاقونه من هول العذاب ولا سيما من كان منهم حريصا على جمع المال وادخاره، وبعد أن ذكر أن هذا الحرص ناشئ عن خُلُقٍ [الهلع] المذموم، واستثنى أصنافا من الموفقين الذين طهرهم الله من ذلك الخلق — عاد إلى أولئك المكذبين، فوصف من خلافتهم، ومن ذمهم أطوارهم فقال: ﴿فأولئك كفروا قِبَلَكْ مُهْطِعِينَ؟﴾.

[قِبَلَكْ] أى جهتك ونحوك وإلى مجلسك [مهطعين] الإهطاع الإقبال والإسراع إلى الداعى على حالةٍ خاصة، وهى أن يكون ذلك المقبل المسرع مادّا عنقه شاخصا بصره إلى من دعاه. ومن أجاب داعيته على هذه الصورة يكون فى الغالب خائفا، تبدو عليه آثار الذل والخضوع؛ فالمكذبون من قريش كانوا إذا سمعوا صوته صلى الله عليه وسلم تاليا آيات القرآن وفيها من الزجر والوعيد ما يزعج نفوسهم، ويصدع أعشار قلوبهم، أسرعوا إلى مجلسه منذعرين مُتَلِعِينَ بأعناقهم نحوه، لا يلوون على شيء حتى يصلوا إليه، وإذ ذاك يتفرقون حوالبه ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِّينَ﴾:

[عزّين] أى فرقا فرقا، وجماعات جماعات، متحدثين بشأنه، ومستغربين ما سمعوا منه، كأنهم فى أذل الأمر يأتون وعليهم آثار الخجل والدهشة والخوف، حتى إذا اجتمعوا وتراءوا زالت وحشتهم، وهذأت نفوسهم، ثم أقبل بعضهم على بعض، فتحلقوا حوله صلى الله عليه وسلم حلقا هنا وهناك، يتسائلون — وهم معرضون عنه، هازئون به — ما ذا قال؟ وماذا أوحى إليه؟ و (عزّين) جمع عِزّة كعِدة على خلاف القياس؛ لأنه لا يجمع جمع سلامة بالواو والنون إلا ما كان علما لمذكر عاقل، أو وصفا لمذكر عاقل. أما مثل جمع سنة على سنين، وعضة على عضين، وكرة على كُرين، وعِزّة على عزّين — فهو شاذ. و [العِزّة] العُصبة والجماعة. أصلها [عزّو] حذفوا واوها وعوّض عنها التاء. وكأنما سميت العصبة من الناس عِزّة لأنها تقترى وتنسب إلى رأيٍ خاصٍّ يجمع بين أفرادها. ويستعمل الناس اليوم [العِزوة] مكان [العِزّة] مع أن [العِزوة] اسم من الاعتراء كالنسبة من الانتساب زنة ومعنى: يقال: إن فلانا لحسن العِزوة.

أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ
مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

فإذا اجتمع هؤلاء المهطعون حوله صلى الله عليه وسلم مجالس مجالس ، في كل مجلس ثلاثة
ثلاثة ، أو أربعة أربعة ، وقد استأنس بعضهم ببعض — عادوا إلى استهزائهم وتكذيبهم .
ويسمعون في آيات الوحي ذكر ما أعد الله للمؤمنين يوم القيامة من النعيم وصنوف الكرامة ،
فيهنزون رءوسهم هازئين ، ويقول بعضهم لبعض سائرين : ” إن كان هؤلاء القوم داخلوا الجنة
ولا بد كما يعدهم محمد فتحن أولاء داخلوها قبلهم “ يريدون أنهم أحق بها منهم ، لأنهم هم أشراف
العرب وسادات قریش ، فقال تعالى مجيباً لهم : (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟)
وهذا استفهام إنكارى مشوب بالتوبيخ والتقرع ، أى لا يطمعن طامع منهم أن يدخلها يتنعم
بها وهو لم يسع لها سعيها .

ثم عاد فكرر زجرهم ، وتفيل رأيهم بأداة الزجر الخاصة به وهى (كلا !) أى ما الأمر
كما زعموا ، وليس طمعهم بدخول الجنة فى محله . وكأن قائلاً يقول : ولماذا يارب ؟ فأجاب
(إنا خلقناهم مما يعلمون) والشيء الذى خلقوا منه المعلوم لهم هو تلك المويهة القذرة ، فإذا
كان الأمر كذلك وعلموا مما خلقوا فما يكون لهم أن يدعوا تلك الدعوى من دخولهم الجنة قبل
المؤمنين ؛ فإن المؤمنين مثلهم فى ذلك ، فلم يبق سبيل للتفاضل بين الفريقين إلا بالتقوى والعمل
الصالح ، واتباع الحق ، وهو ما عليه المؤمنون ، لا ما عليه هم من التكذيب والجحود والعناد ،
فليرتدعوا إذن عن هذا الطمع الباطل فى دخول الجنة قبل غيرهم .

وإنما رد عليهم هذا الرد ، وأياسهم من دخول الجنة بهذا الأسلوب تذكيراً لهم بأن الذى
خلقهم من شئ حقير — كهذا الشئ الذى خلقوا منه — قادر على أن يخلقهم من التراب الذى
تحولت أجسامهم إليه بعد الموت ، فما كان ينبغى أن يدعوا دخول الجنة قبل غيرهم ، بل ما كان
لهم أن ينكروا البعث من أصله .

فانظر كيف جمع فى هذه الكلمات القليلة ما شاء من الاحتجاج على المكذبين ، والتعريض
بهم ، وإلانة القول لهم ، مع الزاخرة التامة فى التعبير ، وحسن الإيقاظ والتذكير ، ولا عجب
فهو الكلام الإلهى الذى تبوأ من البلاغة سنام الإعجاز ، وترك لغيره المآخرو الأعجاز .

فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤١﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٣﴾

﴿فلا أقسم الخ﴾ يقال في هذا القسم المنفى ما قيل في قوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون
وما لا تبصرون) . وقرئ ﴿رب المشرق والمغرب﴾ بالافراد ، أى مشرق الشمس ومغربها .
أما قراءة الجمع فباعتبار أن للشمس مشارق متعددة تختلف باختلاف أيام السنة وفصولها ،
كما أن لها مغارب متعددة كذلك . أو المراد مشارق الكواكب ومغاربها . وفي جملتها الشمس
(رب المشرق) هو الله سبحانه وتعالى . وضمير (منهم) يرجع إلى أولئك الذين كانوا يهطعون إلى
مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغوه تفرقوا حواليه عصائب عصائب عن اليمين وعن
الشمال ، ثم يأخذون في التهمك به وبأتباعه المؤمنين .

وقوله : ﴿وما نحن بمسبوقين﴾ أى إنا إذا أردنا الانتقام من هؤلاء المكذبين ، والأخذ
بنواصيرهم ، فلا يمكنهم أن يفلتوا منا فيسبقونا هربا ، ويفوتونا طلبا . فعنى (ما نحن بمسبوقين)
هنا كعنى قوله تعالى خطابا لهم في غير ما موضع (وما أتم بمعجزين) أى ، ما أتم بالقادرين على
أن تفلتوا منا فنعجز عن الوصول إليكم ، وإزالة العذاب بكم .

يقول تعالى : لا حاجة للقسم فالأمر واضح ، إنا لنرى إمكاننا أن نستبدل بكم يا معشر المكذبين
المستهزئين قوما يكونون خيرا منكم استعدادا للإيمان ، وقبولا للحق ، ومسارة إلى تصديق محمد
عليه الصلاة والسلام ، ثم لا تحسبوا أنكم قادرون على الهرب والافلات ، فتسبقونا وتنجون
بأنفسكم منا بحيث لا نعود قادرين على إزالة العقوبة بكم . كلا ! فكل ما توهمتموه باطل .

ثم التفت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حاضرا له على الثبات والصبر ، ومتوعدا أولئك المكذبين
على ما كان منهم من الجحود والكفر ، فقال :

﴿ فذرهم ﴾ أى دعهم يا محمد ﴿يخوضوا﴾ فيما يعجبهم من طو الحديث ولغو الكلام . جعل
الاستكثار من الحديث الباطل ، والذهاب فيه كل مذهب خوضا على التمثيل . ﴿ويلعبوا﴾ يأتوا
من الأعمال ، ويرتكبوا من الأمور ، ما هو لعب وهزل لا فائدة لهم فيه ولا نفع . ثم لا يزالون
كذلك في خوضهم ولعبهم وباطلهم وغفلتهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون﴾ أى حتى يصلوا
ويبلغوا يومهم الذى أوعدهم الله بالعذاب فيه ، وإذ ذاك يعلمون أنهم كانوا على باطل ، ورأى
فايل ، وأنهم أضاعوا وقتهم ، وخسروا دنياهم وآخرتهم .

يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً
أَبْصَارَهُمْ تَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

[يوم] بدل من يومهم في آخر الآية السابقة . يصف من هول ذلك اليوم ، وحالة المكذبين فيه . و [الأجداث] القبور . و [نُصْب] وزان عُنُق مفرد جمعه أنصاب . وقيل إنه جمع واحدة نصاب ككُتِبَ في جمع كتاب . ومعناه على الوجهين كل ما نُصِب وأقيم لأجل أن يعبد من دون الله ، من صنم أو غيره . و [يوفضون] يسرعون وَيَسْتَبِقُونَ . و [الخشوع] في البصر الغض والكسر ، وفي الصوت الخفض والإخفات ، أما الخشوع في البدن فهو الذل والتطامن ، و [ترهقهم] تعشاهم وتعلوهم وتستولى عليهم .

والمعنى أن أولئك المكذبين المستهزئين الذين أصر الله نبيه أن يحلّهم وشأنهم سيقاقون يومهم الموعود عما قليل ، وفي ذلك اليوم يخرجون من قبورهم مجبيين داعيهم ، مسرعين إلى موقف العرض والحساب ، وإن حالتهم في إسراعهم إلى ذلك المكان كالتهم في الدنيا مذ كانوا ينفرون من مساكنهم في أيام أعيادهم ومواسمهم متسابقين إلى حيث نصبوا أصنامهم وآلهتهم ، أيهم يأتيها أولا ، فيعبدوها ويتقرب إليها من دون الله ، وتكون أبصارهم في ذلك اليوم مغضية منكسرة إلى الأرض ، وعلى وجوههم آثار الذلة والمهانة .

وقوله : ((ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون)) أي هذا هو اليوم الذي كانوا يوعدون به في دار الدنيا فيمارون فيه ويكذبون ، قد تحقق وراؤه بأعينهم .

وفي تشبيه حالة إسراعهم إلى موقف الحساب بحالة إسراعهم وتسابقهم في دنياهم إلى آلهتهم وطواغيتهم — تهكم بهم ، وتعريض بسخافة عقولهم ، وتسجيل عليهم بالجهل في هذا الإسراع إلى عبادة غير من يستحق العبادة والتقاعد عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده .

وقريئ (كانهم إلى نُصْبٍ يوفضون) بفتح النون وسكون الصاد مفردا ، وهو العلم المنصوب . والغاية يستبق إليها المتراهنون يوم السباق ، يقول : إن المكذبين يخرجون يوم القيامة مجبيين الداعي كأنهم يسرعون إلى راية رفعت لهم ، فهم يتدرونها ويستبقون إليها ، وليس في هذا المعنى من التوبيخ والتفريع ما في المعنى الأول ، فيكون الأول هو الأمثل .